

إذاً فكل إنسان - بل وكل حيوان - له اندفاع إلى الكمال والأكمل، وكل مرحلة تالية تزكٍ بالنسبة للسابقة وإن كانت هي أيضاً تزكياً لسابقتها. إذاً فهذا سؤال لا جواب له إلا الإيجاب: «بلى إن لي رغبة إلى أن أتزكى».

ثم شعور النقص هذا، وأنه متدرج إلى الكمال، يدفعه أن يعتنق عقيدة الإله، الرب الذي لا ينقص شيئاً ولا ينقصه شيء، وهو الذي يدرج إلى مدارج الكمال دون أن يتدرج هو نفسه.

ففرعون هذا، الذي ظن أنه الرب الأعلى، عليه أن يشعر بهذا البرهان أنه ليس رباً، وإنما عبدٌ في نقصان، عليه محاولة التزكي، ثم عليه أن يهتدي إلى ربه فيخشاه فلا يطغى، فما أَلَيْنَهُ كلاماً وأنعمه! وما أبلغه برهاناً وأقومه! ﴿وَاهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ العلماء بالله، وما عدم الخشية من الله إلا لعدم العلم والمعرفة به وعدم الهداية إليه.

إن الهداية إلى الرب: «المالك المدبر» هي السبيل المنحصرة في التزكي، فإنه يملك الإنسان فيدبر أمره كأحسن ما يكون دون حاجة منه إليه، والمتزكي عند الرب المحتاج - الذي لا يملكه فلا يملك تزكيتَه - إنه ما يفسد أكثر مما يصلح.

إن مرض الطغيان المبتلى به فراعنة التأريخ لا علاج له إلا الشعور بالنقصان ثم محاولة التزكي بالهداية إلى الرب تبارك وتعالى، فما أحلى دلالة تضم بيان المرض وعلاجه كأتقن وأحسن ما يتصور.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ :

أراه الآية الكبرى، الحسية، بعدما أراه الآية الكبرى العقلية، ليجمع له الآيتين ويُلزِمه بالحجتين، فما هي الآية الكبرى هنا؟! ٣٦١

إنها ليست هي الآية الكبرى بين الآيات، وإنما هي منها وكما أراها موسى من قبل: ﴿لِزِيكَ مِنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَى﴾^(١) وإنها هي العصا التي انقلبت ثعباناً مبيناً بعدما انقلبت حية تسعى، هذه العصا التي نتجت عنها آيات تترى: فقد فلق بها البحر ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٢) وضرب بها الحجر: ﴿فَإَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾^(٣) ثم الآية الكبرى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾^(٤) آية أراه ربه إياها إذ كان بالواد المقدس طوى، ثم أراها فرعون فكذب وعصى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٥).

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ لم يزد هذا البلاغ إلا فراراً، فلم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة قلبه المقلوب الخاوي من معرفة الله، فكذب موسى واستمر في عصيانه لله ولموساه، وتجاوز عن طغيانه الأول إلى أشر وأطغى ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ تلك الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور والجهالة.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾^(٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾^(٦) أرى آيات الله كلها بما فيها من آيات ربه الكبرى، فكذب وعصى.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾^(٦١) فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٦٢﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٦٣﴾:

ثم - بعدما كذب وعصى - أدبر عن موسى وعن آية الله الكبرى، أدبر يسعى في كيده فحشر حشره وجمع جمعه فناده نداءه كأحمق حمقاء التاريخ: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾^(٧): إنه تولى وسعى وجمع كيده وجمعه وعله مرتين: مرة لدعواه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وأخرى لمكافحة السحرة

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٤٥.

(٦) سورة طه، الآيتان: ٥٦، ٥٧.

(٧) سورة طه، الآية: ٦٠.

(١) سورة طه، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٠٧.

بسحريهم: آيات الله الكبرى، أو عله مرة واحدة جمع فيها بين الكيدين: استخف قومه أنه ربهم الأعلى، فأطاعوه فيما أراد.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾: إنه تدرج في ربوبيته المزعومة المدعاة حتى إذا وصل إلى ذروتها، والتدرج بنفسه برهان لا مردَّ له على كذبه في دعوى الربوبية.

يقولها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره الحمقاء وغفوتهم وإذعانهم له وانقيادهم، أجل وإنها الجماهير الذلول تحني له ظهورها كالحمير فيركبها، وتمدُّ له أعناقها فيجرها، وتُحني له رؤوسها فيستعلي عليها، وتتنازل له عن حقوقها الإنسانية فيطغى: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ...﴾^(١) وما كان له أن يتقول بهذه القولة الكافرة لو وجد أمة واعية أبيّة كريمة مؤمنة عارفة أنه عبد كسائر العباد، إن يسلُّه الذباب شيئاً لا يستنقذه منه ضعف الطالب والمطلوب.

فرعون في تضاد الآلهة:

إنه قد يعبد آلهة كما يعبدها غيره ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنَقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(٢) آلهته اعتباراً أنه كان يعبدها، أم آلهته لأن قومه كانوا يعبدونها، أم بالاعتبارين.

وقد يدّعي هو الألوهية لأن له ملك مصر بما فيها الآلهة ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفَوْرُ الْيَسَّ إِلَى مُلْكِي مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣) أمر أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكاد يُبين ﴿٥٢﴾^(٣).

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٥١، ٥٢.

ويهدد موسى إن اتخذ إلهاً غيره، توحيداً لنفسه في الألوهية: ﴿قَالَ لَنْ أُتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(١) يعني إلهاً لا أرتضيه وهو الإله الحق، فإنه كان يعترف بوجود أرباب وأنه أعلاهم: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ هناك أرباب متفرقون وأنا أعلاهم وربهم أيضاً إذ أملكهم بمالي ملك مصر.

يبقى في طغيانه وغيه هكذا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٩٠) ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ^(٩١) ﴿٢﴾.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾^(٩٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٩٦﴾

نكال الآخرة تتقدم هنا على الأولى، ولأنها أشد وأبقى، وأنها تشمل حياتي البرزخ والآخرى، فأما نكال الأولى بما أنه يمثل نكال الآخرة تمثيلاً ضئيلاً، فهو غرقه بمن معه في اليم على حين غرة وغفلة وطيغان: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾^(٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجْنُودِهِ فَعَاثَبَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴿٣﴾.

فلما غشيه اليم بما طغى ﴿قَالَ ءَامَنْتُ . . . ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ . . . ؟﴾ فَاَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَن خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٤﴾.

هذا هو نكاله في الأولى، بقي عذاباً على روحه القذرة ما دام بدنه لمن خلفه آية، ثم نراه حين الغرق يدخل جحيم البرزخ، ثم يوم القيامة أشد

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٣) سورة طه، الآيات: ٧٧-٧٩.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩٢.



العذاب: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾^(١)، وعلى حد تعبير باقر العلوم عليه السلام: «أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة»^(٢).

فإذا كان نكال الأولى عنيماً قاسياً دائماً على روحه ببدنه، فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى وأبقى؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾. عبدة ما أعظمها بما يرى بدنه القذر في الأهرام، يراه السائحون الوافدون إلى مصر، عبدة لمن يخشى الله ويخشى نكاله الآجل والعاجل، وكل سائر على نهجه، وكل إنسان يعمل على شاكلته.



(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) نور الثقلين ٥: ٥٠٠ عن الخصال عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: «قال أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكان بين أن قال الله تعالى لموسى وهارون ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] وبين أن عرفه الإجابة أربعين سنة ثم قال: قال جبرئيل عليه السلام: نازلت ربي في فرعون منزلة شديدة فقلت: يا رب تدعه وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك». أقول والكلمتان قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقوله: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].



﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا
﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِتَنَمَكُّوا ﴿٣٣﴾

.. جولة أخرى لها جرسها الصارخ في أعماق الأسماع، تُندد
بالمشركين الطغاة المعتدين المغترين بقوتهم، رداً لهم إلى شيء من مظاهر
القوة الإلهية الكبرى الملموسة المحسوسة، التي لا تحسب قوتهم بجانبها
شيئاً يذكر.

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ :

قوة وصلابة ورموزاً وغموضاً، بدءاً وعوداً.

﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) :

بناها كسماء لا كسبع سماوات، لأن دحو الأرض وإخراج مائها
ومرعاها، كل ذلك كان قبل خلق السماء سبعاً كما تفصلها الآيات في
«فصلت»: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سِوَاءَ اللَّسَالَيْنِ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُحَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحَفِظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ (١).

فخلق السماوات السبع متأخر عن خلق الأرض وتعميرها بمرحلة،
وخلق أنجمها بما فيها الشمس متأخر عنه بمرحلتين.

بناها من مادتها المنبثقة عن المادة الأولية «ماء» باضطرامها، وهي الغاز
«الدخان» ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ...﴾ ﴿٢٧﴾ بنائها وسواها من ذلك الغاز،
أن ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾.

فهنا بناءان: بناء السماء، وبناء السبع الشداد، والآيات هذه بصدد بيان
البناء الأول، ولقد نبأنا عن البناء الثاني - من قبل - سورة النبأ.

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾ ﴿٢٨﴾ :

والسَّمَكُ هو الطاق المسموك بما يسمكه ويمسكه من السقوط، وهو هنا
عمد لا ترونها، كما السماوات أيضاً بأنجمها: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا﴾ ﴿٢٩﴾. فسمك السماء قبل السبع، وسمك السماوات السبع، إنهما
كليهما ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ﴿٣٠﴾ فَثُمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا وَعَلَىٰ حَدِّ تَفْسِيرٍ بَاقِرِ
العلوم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَسَوَّيْنَهَا﴾ سماء يرفع سمكها، فلولا سمكها لم تكن سماء، بل كانت
تساقط إلى أعماق الأجواء كما سوف تتناثر الكواكب عند قيامتها واسترجاع
سمكها وجاذبيتها.

﴿فَسَوَّيْنَهَا﴾ سماء عادلة الأطراف، متساوية الجوانب والأكناف، دون
اختلاف بين أجزائها لأنها كانت كلها الغازات الأولية على حراراتها
وظلماتها وإشراقاتها، فتلك ليلها وهذه ضحاها، إذ لم تخلق بعدُ شمسها
المضحية وشموسها المشرقة وكراتها المستنيرة أحياناً والمظلمة أخرى.

﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ﴿٣١﴾ :

أصل الغطش من الأغطش وهو الذي في عينه شبه عمش، والتغطاش

هو التعامي عن الشيء، فيأغطش ليل السماء هو جعله مظلماً، وعَلَّه يرمز إلى أن الدخان السماوي كان نيراً لما خلق من تفجر المادة الأولية «الماء» فلما تصاعد دخاناً أظلم: أن أحاطت الظلمة جوانبها المجاورة للفضاء، والنور والضياء باطن في بطنها، ثم الله أخرج ضحاها إذ نشر الدخان في الفضاء وقلبه ظهر بطن فأصبح ليلاً وضحي، نوراً وظلاماً ف ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾.

كل ذلك تؤيده السنة المتهدية بالكتاب وعلى حد تفسير باقر العلوم عليه السلام ^(١) كما ترى تفاصيلها في البحث الفصل عن خلق السماوات والأرض عند مواضعها الأنسب.

دحو الأرض وطحوها:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ^(٢):

إن دحو الأرض وطحوها: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ ^(٢) إنه كان أيّاً كان - بعد

(١) نور الثقلين ٥: ٥٠١ في روضته الكافي بالإسناد عن محمد بن عطية عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال لرجل من أهل الشام: وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان أول ما خلق من خلقه الشيء من الشيء إذا لم يكن له انقطاع أبداً ولم يزل الله إذاً ومعه شيء وليس هو يتقدمه، ولكنه كان إذ لا شيء غيره وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه. وخلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشقت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضاء نقية ليس فيها صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق الله النار من الماء فشقت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع ولا ثقب وذلك قوله: ﴿السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ ^(٢٧) رَفَعَ سَعَتَهَا فَسَوَّاهَا ^(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ^(٢٩) [النازعات: ٢٧-٢٩]، قال: ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا سحب ثم طواها فوضعها فوق الأرض ثم نسب الخليقتين فرفع السماء قبل دحو الأرض فذلك قوله عز ذكره: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾، يقول بسطها.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٦.

خلق السماء، لا بعد السماوات السبع، لما درسناه في الآيات من «فصلت»
أن تسبيح السماء كان بعد خلق الأرض ببركاتها وجبالها، فما هو دحوها
وما هو تأثيره عليها؟

إن الدحو والطحو هما: الرمي بقهر والإزالة والرحي والدحرجة^(١)،
والأخيرة هي أشمل معانيها وأكفأها دلالة على أن دحوها هو الحركة
المنظمة، أو بدايتها المكملة بإرساء الجبال في أعماقها وعلى حد تعبير
الأمير **عبد السلام** «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب
الشَّم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسبخ
بحملها» و«سكنت الأرض مدحوة في لُجّة تياره، ورُدّت من نخوة بأوه
واعتلأه وشموخ أنفه وسمو غلوائه وكعّمته على كظّة جريئة فهدم بعد نزقانه
ولبد بعد زيقانه وثباته»^(٢). . . وسكون الدحو هنا هو السكون عن الاضطراب
بانظام حراكها في دحوها.

وقد ذكرنا مسبقاً - سناداً إلى آيات - أن الأرض كانت متحركة منذ
خلقت، ثم جعلها الله تعالى ذلولاً بعد شماسها، وهنا تعرفنا على بدايتها في
انتظام حركاتها أنها بعد خلق السماء قبل تسبيحها.

(١) في تاج العروس «دحى السيل بالبطحاء رمى، والمطر الداحي الذي يدحو الحصى عن وجه
الأرض بنزعه، والدحو الحجارة المراماة بها، ويقال للفرس: مر يدحو إذا رمى بيده رمياً.
وفي غريب القرآن للراغب الأصبهاني «دحى المطر الحصى من وجه الأرض، أي جرفها ثم
ذكر بقية المعاني المسبقة» والحركة المنظمة والدحرجة ظاهرة هنا وهناك.

(٢) وبداية الخطبة «كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة يلتطم أواذي
أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغو زبدًا كالفحول عند هياجها فخضع جماع الماء
المتلاطم لثقل حملها وسكن هييج ارتمائيه إذ وطأته بكلكلها وذل مستحذياً إذ تمعكت عليه
بكواهلها، فأصبح بعد اصطحاب أمواجه ساجياً مقهوراً وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً» . .
أقول: والظاهر هنا ومن غيره أن الأرض رويت لأول مرة بالغرق ولم يكن سبيل لترويتها إلا
هذا، ثم ابتلعت الماء ثم أخرج الماء منها بدحوها.

وفي روايات مستفيضة أن الدحو كان من تحت الكعبة - زادها الله شرفاً - .

فعن إمام المتقين علي عليه السلام : «إن شامياً سأله عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ قال: لأن الله ملك الأرض من تحتها، أي دحاها».

والمك هو الدرجة كما في القاموس، وعنه عليه السلام أيضاً: «فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها على الماء».

وهذه كرامة لمكة المكرمة أنها نقطة الابتداء لانتظام حركات الأرض الناتجة عنه مختلف ألوان الحياة، وكما أن حج البيت قيام في الحياة وانتظام للحركات الإنسانية في مختلف مجالاتهما ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾^(١) أي نقطة تلاق وانطلاق لكافة المتطلبات الحيوية الجماعية الإسلامية السامية.

هذا، وإن تفسير الدرجة لدحو الأرض ما تصرّح به اللغات الصراح والأحاديث المفسرة لحق المعني منه، ولا تنافيه اللغة والأحاديث التي تفسره بالبسط، لأن انبساط الأرض في نفسها وللحياة هو لزام حراكها المنظمة المعقولة الدورانية، إذ كانت لينة تتأثر بالحراك على أثر قانون الفرار عن المركز، ولم يفسره بـ «البسط» إلا لغة التفسير، وكما نراه في الكثير من كتب التفسير، وكذلك الأحاديث التي تعني تفسير النتيجة الهامة من دحوها وحراكها، ومن الشاهد عليه أننا لا نرى البسط في معنى الدحو إلا بالنسبة للأرض لا سواها!

وإن أهم ما أنتجه دحو الأرض وطحوها هو بسطها وإخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها في أعماقها، بعد أن كان ماؤها مخبواً فيها، وجبالها لينة دون رسو في قطع أديمها.

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

إن بداية ظهور الجبال هي من حصيلة الأمواج التي ظهرت على سطح الأرض نتيجة الحركات والاصطدامات بالجو البارد، وقانون الفرار عن المركز، وكما عن علي عليه السلام حين يُسأل: «مِمَّ خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج»: أي أمواج السطح المذاب، الضارب إلى الانجماد في المواضع المستعدة.

فلقد مُدَّت الأرض وسُطِحت على أثر حركاتها الأولية، ثم على أثر دحوها، فألقي فيها رواسي شهقت من فوقها وأرسيّت في بطنها: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (١) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ (٢).

والرواسي الملقاة تعم المخلوقة الممتدة على سطح الأرض إلى باطنها، والتي انبثقت من تفجرات البراكين، والتي سقطت من نجوم السماء.

ومن أهم ما نذكره هنا كأبلغ نموذج روائي بعد الآيات ما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بشأن الجبال: «وجبل جلاميدها ونشوز متونها وأطوادها فأرساها في مراسيها فألزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء ورست أصولها في الماء، فأنهدّ جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها فأشهب قلالها وأطال أنشازها وجعلها للأرض عماداً وأرزها فيها أوتاداً فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسبخ بحملها أو تزول عن مواضعها».

فقد سطحت الأرض ومدت بما دحيت ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٣) فهيئت لرسو الجبال وإرسائها في قطع أديمها، ثم ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾.

(١) سورة الحجر، الآية: ١٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣.

(٣) سورة الغاشية، الآية: ٢٠.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (٣٢):

عرفنا مسبقاً أن مياه الأرض كلها من السماء، وهنا نعرف أنها نزلت عليها قبل دحوها وقبل تسبيح السماء وخلق أنجمها، فما كان الماء ليخرج من كبد الأرض - وهي مجنونة الحراك والحرارة، يتصاعد منها بخاراً إلى السماء - لو كانت على حرارتها، أو كان بخاراً مكنوناً في جوفها لكي لا يفر عنها لو ظهر على سطحها، حتى إذا دحاها ربُّها، فأرسي جبالها المتكونة من الأمواج على سطحها الذائب، أرساها في قطع أديمها بعدما كانت ليّنة غير راسية، ثم إرساء الجبال - ولزامه برودة الأرض شيئاً ما - هيئاً الأرض لإخراج مائها ومن ثم مرعاها: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ﴾.

وإرساء الجبال يوحي بتكوّنها قبل إرسائها، وكما الآيات المسبقة تدل أنها نصبت ثم أرسيت ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ...﴾ (١).

فلقد خلقت الأرض محترقة مذابة لا ماء فيها ولا كلاء ولا جبال، ثم الله أنزل عليها من السماء ماء بعدما بردت شيئاً ما، ولكنها ابتلعت ماءها خوف ارتجاعه إلى السماء نتيجة الحرارة الزائدة، وأخذت الجبال تظهر عليها من الأمواج، ثم دحاها فأرسي جبالها وأخرج منها ماءها ومرعاها (٢).

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ﴾ (٣٣):

كل ذلك ليمتّعكم وأنعامكم، يمتّع أنعامكم لكي تتنعموا منها، ويمتّعكم إلى أجل مسمى لتذكروا نعمة ربكم وتشكروه عليها.



(١) سورة الغاشية، الآية: ١٩.

(٢) في الدر المنثور بالإسناد عن قيس بن عباد قال: إن الله لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها رواسي فلم يدروا من أين خلقت؟.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرَزَتِ
الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ
الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠)
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤)﴾ :

هي الداهية الغامرة المتفاقمة التي تنسي الدواهي كلها، ولا تطاق لمن وافاها^(١)، وهكذا سوف تكون الساعة ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾^(٢) ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾^(٣).

إن هناك طامات، داهيات غامرات، والقيامة الكبرى كبراها، فطامة الموت^(٤)، وطامة قيام القائم^(٥)، وطامة الرجفة والصيحة، إنها كلها

(١) طمه: مآله، والماء غمر والشيء كثر والأمر عظم وتفاقم، والعدد الكثير والداهية، والقيامة تطم، أي تغمر كل شيء، والطمطم وسط البحر، والطامة الداهية التي لا تستطاع وأصله من طم الفرس إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء إذ أملاً النهر كله.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٧.

(٤) نور الثقلين ٥: ٥٠٦، القمي عن النبي ﷺ «كفى بالموت طامة يا جبرائيل! فقال جبرائيل: إن ما بعد الموت أطم وأطم من الموت».

(٥) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أمير المؤمنين عليه السلام بعدما يذكر الدجال ومن يقتله وأين يقتل «ألا أن بعد ذلك الطامة الكبرى، قلنا: وما ذلك يا أمير المؤمنين! قال: خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان.. وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها..».

طامات، إلا أنها غير تامات، إلا الأخيرة الآخرة، فالصيحة والرجفة الثانية هي الطامة الكبرى التي تغمر الكون أجمع فلا تبقي ولا تذر، لوَاحَة للبشر، ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾^(١).

إن الحياة الدنيا ومتعها كلها ينتهي إلى أجل، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت كل شيء، على المتاع وعلى إنسان المتاع، وعلى الأرض والسماء المتاع، إنها تطم وتعم الكون بمن فيه وبما فيه، ولكي تبدأ الحياة جديدة داخرة، ثم لا يبرز هناك إلا ما سעה الإنسان وقدمه لأخراه.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾^(٢):

يتذكر ما نسيه أو تناساه، وما لم يكن ليتذكره يوم الدنيا لغفلته: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣): يتذكره ما هو؟ ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾^(٤) ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَخْضَرَتْ﴾^(٥) إذ كان حين الدنيا يعلم ظاهره دون باطنه ومصيره، كما ويتذكر بما يسمعه ويراه من أقواله وأعماله، من حله وترحاله، التي كان ربه يستنسخها في ذاته وفي أرضه. . ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٦) ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَّا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾^(٧).

صحيح أن الإنسان يتذكر ما سعه يوم البرزخ أيضاً، ولكنه برزخ وليس تاماً، وكما أن طامته ليست تامة، فيوم الطامة الكبرى سوف يكون تذكر

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٦.

(٣) سورة الإنفطار، الآية: ٥.

(٤) سورة التكوير، الآية: ١٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٦) سورة النبأ، الآية: ٤٠.



الأعمال تاماً كما الجزاء ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لُهُ الذِّكْرَىٰ﴾^(١) وأنى! ولات حين مناص، ولا تنفعه الذكرى.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾^(٢):

بروزاً للرؤية للناظرين، من أهله وسواهم، وبروزاً لصلي الغاوين: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾^(٢). تُسَعَّرُ الجحيم بمن يدخلها من أصول الضلالة، بعد أن كانت خامدة: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾^(٣) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾^(٤).

والجحيم هي نار شديدة التأجج بوقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين. وتبرز الجحيم هو إظهارها بعد خفائها، ولقد كانت الجحيم مع أهلها يوم الدنيا، غافلين عنها، جحيم الذوات والأفكار والأعمال، وهي تبرز يوم يقوم الأشهاد: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٥) وما الجحيم يوم الطامة الكبرى إلا بروزاً لحقائق الأعمال، مهما كانت أرضها حاضرة.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾^(٦) ﴿وَأَنزَلَ الْخَبْرَةَ الدُّنْيَا﴾^(٧) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٨):

تقسيم ثنائي للناس أجمعين من أهل الجنة والجحيم بمن فيهما من درجات، ويذكر لكل مرجعه بما قدمت يداه.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾^(٦): على ربه وعلى المربوبيين، تجاوز عن طوره وعن الهدى، فمدى الطغيان هذا أوسع مما لذوي الجبروت والسلطان، شاملاً لكل مجاوز حده، الذي يحيا حياة الطغيان، التي هي ممات للحق وذوي

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٩١.

(٣) سورة التكويد، الآية: ١٢.

(٤) سورة المطففين، الآية: ١٦.

(٥) سورة ق، الآية: ٢٢.



الحق، وليس الطغيان إلا نتيجة عدم المعرفة بالله، وعدم الشعور بالمسؤولية، وأن يحسب الإنسان نفسه كأنه الكل: مدار رحي الكون.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: إن الطغيان يدفعه إلى إثارة الحياة الدنيا على الحياة العليا، وكما الإيثارة يدفعه إلى الطغيان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ (١) .

ليست الحياة الدنيا هي الحياة في دار التكليف، فإن الدنيا مدرسة الآخرة، وإنما أن يعيشها الإنسان حيواناً لا يعرف القيم الإنسانية، فإذا أهملت الحياة العليا، المناسبة للآخرة والأولى، اختلت كل الموازين والقيم في تقدير الإنسان، واختلت كل ضوابط الإدراك الحق والسلوك العدل في حياته، وأصبح حيواناً وحشياً على صورة الإنسان.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: لا في أخراة فحسب، بل وفي أولاه أيضاً، فيما أن المأوى هو الملجأ والمسكن، فالذي يعيش الحياة الشريرة، فحياته جحيم لنفسه ومن سواه، مهما كان غافلاً عن جحيم الحياة، وسوف تظهر حقيقة هذا الجحيم يوم الطامة الكبرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣):

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾: خاف مقامه، دون أن يخافه: ﴿وَلَسُكِّنَكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (٢) فليس خوف المقام هنا إلا لخوف الوعيد الناتج عن مقام الرب.. فما هو المقام؟

مقام الرب هنا هو قيامه بالعدل والجزاء الوفاق للحسنات والسيئات (٣)،

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٤.

(٣) فإن المقام بين كونه اسم مصدر واسم زمان واسم مكان والأخيران لا يناسبان مقام الربوبية إذ لا زمان له ولا مكان.

هذا هو مقامه وكما شهد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

ومن قيامه بالقسط هو الجزاء العدل على الحسنات والسيئات وإن كانت الحسنات فيها فضلاً بعد العدل.

فالله تعالى لا يحيف حتى يخاف من جوره: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) وإنما يخاف من الجائر الفاجر ﴿تَخَافُونَ أَن يَنْخَظَفَكُمْ النَّاسُ﴾^(٣).

إذاً فلا يخاف الرب، وإنما يخاف مقام الرب العاصي لعصيانه، والعاذل فلا يعصي: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٤).

فخوف الله ليس لألوهيته، وإنما لعدله بربوبيته: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥)، فالذين يخافونه فلا يعصونه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٦). ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٧).

والجنتان هما الجسدانية والروحانية وهي أكبر: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وِرْضُونَ مِنْهُ اللَّهُ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٨)... لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٩).

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: إن خوف مقام الرب لا يشمر إلا بنهي النفس

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة آل عمران، الآية: ١٨. | (٦) سورة فصلت، الآية: ٣٠. |
| (٢) سورة النور، الآية: ٥٠. | (٧) سورة الرحمن، الآية: ٤٦. |
| (٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٦. | (٨) سورة التوبة، الآية: ٧٢. |
| (٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥. | (٩) سورة آل عمران، الآية: ١٥. |
| (٥) سورة المائدة، الآية: ٢٨. | |

عن الهوى ﴿... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(١) فالنفس البهيمية هي التي تدفع الإنسان إلى خطوات الشيطان وإلى الطغيان على الرحمن وإلى أن يؤثر الإنسان الحياة الدنيا، فليعيش الإنسان حياته بجناحي السلب والإيجاب: أن يسلب عنه هوى النفس الطائشة الطاغية تنزيهاً وتزكية، وأن يفرض على نفسه خوف مقام ربه تحلية له وتجلية، فيطير بجناحيه إلى معراج المعرفة والعبودية الكاملة: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢).

«فمن علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى»^(٣) «فلا تدع النفس وهواها فإن هواها في رداها وترك النفس وما تهوى داؤها، وكف النفس عما تهوى دواؤها»^(٤) «واحذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدي للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»^(٥).

هذه هي الطريقة المثلى في تزكية النفس إذ ألهمت طغواها وتقواها: أن يتقي فجورها ويقوئها في تقواها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٦) فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٧) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا^(٨) ﴿١٠﴾^(٩).

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام نزعات النفس وهوساتها، كما أن نهياها عن الهوى يساعد على خوف أكثر وأتم فهما متناصران في هذا الميدان.

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) نور الثقلين ٥: ٥٠٧ ح ٤٤ عن الصادق عليه السلام في الآية.

(٤) في ح ٤٥ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: اتق المرتقى السهل إذا كان منحدره وعرا، قال:

وكان أبو عبد الله عليه السلام يقول: لا تدع النفس.

(٥) في ح ٤٩ بإسناده إلى أبي محمد الدابشي عن الصادق عليه السلام.

(٦) سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.

وإنما الإنسان إنسان بهذا النهي وهذا الخوف دون أن يترك نفسه لهواها فتأخذ حريتها فتعيث في الأرض فساداً.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: في الأولى بحياة سعيدة آمنة آمنة، وفي الأخرى بحياة خالدة هي أسعد وأبقى، فهناك جنة في الحياتين وهناك جحيم فيهما.

إن الأول يرتفع ويتهياً لحياة رفيعة طليقة، والآخر يرتكس وينتكس في درك الجحيم إذ هدر إنسانيته فانهدرت، فيرجع أخيراً وقوداً للنار كما بدأ الحياة وقوداً لمشاكل الحياة الجهنمية الغادرة.

فالمؤمن جنة أينما حل، والكافر نار حيثما دار، وإلى دار القرار.

والدواء الأول والأخير لأدواء الإنسان ككل، ما عن الرسول الأقدس ﷺ «إن الله يقول: وعزتي وجلالي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبدٌ هواه على هواي إلا شئتُ عليه أمره ولبستُ عليه دنياه وشغلتُ قلبه بها ولم أوتِه منها إلا ما قدّرت له، وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبدٌ هواي على هواه إلا واستحفظته ملائكتي وكفلت السماوات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).



﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسُهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (٤٤) ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (٤٦)

مرسى الساعة ومنتهاها

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ (٤٢)

يسألونك المتعنتون عن مرسى الساعة، كما وعن الساعة نفسها: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١) فما هي الساعة؟ وما هو مرساها؟ وما هو منتهاها؟

أصل الساعة من ساع الشيء إذا ضاع وزال، وساعت الإبل: سرحت وتخلت بلا راع، فالساعة هنا وفي سواها من آيات إلا القليل، هي وقت ضياع الكائنات وزوالها بأسرها وكأنها سرحت بلا راع يرعاها، ويقال لجزء من الزمان ساعة، لتصرُّمه وضياعه، وكما الزمان كذلك بأسره.

وبما أن زوال الكائنات تستقبله القيامة الكبرى، قيامة الأموات، اعتبرت هي أيضاً ساعة، فالرجفتان: رجفة الإماتة ورجفة الإحياء، كلتاها الساعة، والأولى أولاها والثانية منتهاها، و﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾: الساعة، توحى إلى الثانية لقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ فهي إذا ساعة الإحياء. كما أن هنا آيات توحى إلى الأولى وإليهما أيضاً.